تفسير ابن كثير

يقول تعالى : { أو لما أصابتكم مصيبة } وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم { قد أصبتم مثليها } يعني يوم بدر فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا وأسروا سبعين أسيرا { قلتم أنى هذا } أي من أين جرى علينا هذا { قل هو من عند أنفسكم } قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا قراد أبو نوح حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول ا صلى ا عليه وسلّم عنه وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل ا { أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم } بأخذكم الفداء وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غزوان وهو قراد أبو نوح بإسناده ولكن بأطول منه وهكذا قال الحسن البصري وقال ابن جرير : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا إسماعيل ابن علية عن ابن عون عن محمد عن عبيد ح قال سنيد وهو حسين : وحدثني حجاج عن جرير عن محمد عن عبيدة عن علي Bه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى ا عليه وسلّم فقال : [يا محمد إن ا قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين : إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم قال : فدعا رسول ا صلى ا عليه وسلّم الناس فذكر لهم ذلك فقالوا : يا رسول ا عشائرنا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس في ذلك ما نكره ؟ قال : فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر] وهكذا رواه النسائي والترمذي من حديث أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين به ثم قال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة وروى أبو أسامة عن هشام نحوه وروى عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبي صلى ا عليه وسلّم مرسلا وقال محمد بن إسحاق و ابن جريج والربيع بن أنس والسدي { قل هو من عند أنفسكم } أي بسبب عصيانكم لرسول ا صلى ا عليه وسلّم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم يعني بذلك الرماة { إن ا على كل شيء قدير } أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ثم قال تعالى : { وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن ا } أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لاخرين كان بقضاء ا وقدره وله الحكمة في ذلك { وليعلم المؤمنين } أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا { وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل ا أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم }

يعني بذلك أصحاب عبد ا بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة ولهذا قال { أو ادفعوا } قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي : يعني كثروا سواد المسلمين وقال الحسن بن صالح : ادفعوا بالدعاء وقال غيره : رابطوا فتعللوا قائلين { لو نعلم قتالا لاتبعناكم } قال مجاهد : يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم ولكن لا تلقون قتالا قال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا كلهم قد حدث قال : خرج علينا رسول ا صلى ا عليه وسلّم يعني حين خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبد ا بن أبي ابن سلول بثلث الناس وقال : أطاعهم فخرج وعصاني ووا ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب واتبعهم عبد ا بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول : يا قوم أذكركم ا أن لا تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم قال : أبعدكم ا أعداء ا فسيغني ا عنكم ومضى رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال ا D : { هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان } استدلوا به علة أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله : { هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان } ثم قال تعالى : { يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم } يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته ومنه قولهم هذا { لو نعلم قتالا لاتبعناكم } فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاؤوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة ولهذا قال تعالى : { وا أعلم بما يكتمون } ثم قال تعالى : { الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا } أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل قال ا تعالى : { قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين } أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين قال مجاهد عن جابر بن عبد ا : نزلت هذه الاية في عبد ا بن أبي ابن سلول